الأستاذة يمينة بن سويكي

مادة: قضايا نقديّة

محاضرة رقم:03+04(قضيّة التّراث النّقدي+النّقد العربيّ والمناهج النّقدية)

موجّهة لطلبة: السنّة الثّانية ماستر أدب حديث ومعاصر

تمهيد:

يعدّ النّقد من أهمّ الحوافز الدّافعة إلى ازدهار الإبداع الأدبي، وتطوير أشكاله الفنيّة ومقاصده الفكريّة والثّقافية، وتنوّع مناهجه التّحليلية، فما فتئ كلّ إبداع سرديّ أو شعريّ إلاّ ويقابل بإبداع نقديّ في مواكبة دائبة عبر توالي العصور، وتعاقب الأجيال، وما ازدهر الأدب في عصر من العصور، إلاّ وكان النّقد رافدا له؛ تفسيرا أو تقييما أو إبداعا، وكلّما قلّت القراءة النّقدية المبدعة خبت جذوة الإبداع وقاربت الأفول.

***1/إشكاليّة التّعامل مع النصّ التّراثي:**

النصّ القديم لم يقفل ولم يقتل بحثا، يبقى مفتوحا لأنّه بشهادة القاصي والدّاني خالد يشمل جلّ ما يرشّحه لذلك، وقد حاول النّقاد المحدثون بما تأتّى لهم من اطّلاع على تراثهم وما جادت به ثقافة الآخر وما وصلت إليه خلاصة معارفهم ولوجه، -رغم علمهم بالرّصيد النّقدي الفخم والضّخم الذّي دأب على تناوله بالدّرس طيلة قرون متعاقبة، وما تمّ حوله من دراسة وتمحيص-، متسلّحين في ذلك بما تأتّى لهم من مطالعاتهم ومراجعاتهم لخلاصات العلوم المختلفة وللمناهج والنظريّات الّتي تمّ تداولها واستنباطها في العصر الحاضر في شتّى العلوم؛ كعلم النّفس والاجتماع والأنتروبولوجيا وغيرها...وقد تناول هذا التّراث بالدّراسة والنّقد تيّاران اثنان:

-الأولّ: محافظ تقليديّ قديم سلفي، كما يحلو للبعض الاصطلاح عليه.

-الثّاني: تيارّ آخر حداثيّ معاصر له تحفّظات على كلّ ما هو تراثي؛ تبنّى طروحات غربيّة وأفكار جاهزة وافدة، كثيرا ما يتخفّى وراء الحداثة والعلم والمنهج لتقديم خطاب نقديّ، يقول أنّه حداثيّ جديد، فقط لأنّ فيه نبضا غربيّا.

وبين هذا التّيار والّذي سبقه تيّار توفيقيّ عبّر عنه "الجابريّ" بقوله: " فما كان في الوسط فهو توفيقيّ، وما كان في أحد القطبين فهو إمّا سلفيّ ينشد الأصالة وإمّا عصرانيّ ينشد الحداثة"

***2/تلقي النصّ التّراثي:**

إنّ تلقّي النصّ التّراثي طرح منذ القديم إشكالات في القراءة وفي تشكيل موقف موحّد إزّاءه؛ فبينما تناوله البعض في شكل تقديس أدبيّ ونموذج يجب أن يحتذى به، ولا يمكن للإبداعات اللاّحقة مهما سمت أن تبلغ ما بلغته تلك العبقريّات الخالدة، واعتقد النّقاد التّراثيون بقناعات راسخة أنّ استهداف التّراث من طرف بعض المتعصّبين للحداثة،إنّما القصد منه هو النّيل من جزء هام من الهويّة، فزاد الالتفات حول كلّ ما هو تراثيّ، وأحيط المتن القديم بأهميّة أكثر من ذي قبل، بل وأعظم من ذلك، فسعوا لترسيخ مقولاتهم والحمل على تصديق مقولة خلود النصّ التّراثي، بل ذهب البعض أبعد من ذلك عندما دعوا لتأسيس نقد عربيّ خالص لقراءة التّراث، لأنّ ذلك سيكلّف عدم وقوع النصّ التّراثي ضحيّة لمعطيات المناهج النّقدية

المعاصرة الكثيرة، الّتي غالبا ما تكون أصولها غربيّة، لذلك قاموا بدعوة إلى قراءة جديدة لتراثهم "تكشف عن النظريّات الشّعرية العربيّة القديمة، والنظريّات الشّعرية المعاصرة في مفهوم الشّعر أو الشّعرية، بنية ودلالة".

وفي مواجهة هؤلاء (التّراثيّون) يتأتّى للآخرين(الحداثيّين) الاطّلاع على التّجارب الغربيّة الحديثة في مقاربة النصّ الإبداعيّ، والإلمام بمجموع المناهج الحديثة، فراحوا يطرقون النصّ الشّعري التّراثي- خاصة- متسلّحين بنصوص ومناهج ونظريّات وأدوات إجرائيّة نقديّة غربيّة.

وقد استفاد هؤلاء النّقاد العرب المحدثون الّذين كان التّراث حقلا لدراستهم وموضوع اهتمامهم من الاشتغالات النّقدية بالنصّ الإبداعيّ الغربيّ، بدءا بما حصل لهم من قراءة النّقد التّراثي العربيّ، ثمّ مسارات المناهج والنظريّات النّقدية الغربيّة بداية من الشّكلانية الرّوسية والبنيويّة وصولا إلى نظريّات القراءة والتّلقي والتّأويل والنّقد الثّقافي.

3/المطبّة الّتي وقع فيها الحداثيّون:

رغم أنّ جهد هؤلاء لم يستقّر على منهج أمثل لمواجهة النصّ التّراثي وقراءته، إلاّ أنّ هذا ما أثار أسئلة عبّرت أحيانا عن مآزق اكتشفت أثناء مواجهة النصّ التّراثي، وأحيانا مطبّات فكريّة ومنهجيّة تثار عند الحديث عن المضامين الفكريّة والإيديولوجيّة الّتي تحويها النّصوص التّراثية، والّتي تميّزها عن مثيلاتها الغربيّة، الّتي وضعت على مقاسها المناهج الحديثة، والّتي يصعب تطبيقها أحيانا على النّصوص التّراثية العربيّة خصوصا الشّعرية منها.

وربّما ما وقع فيه الحداثيون العرب في خلط وسوء فهم أحيانا في هذا الباب، هو جعل العلاقة بين التّحديث كمطلب واقعيّ لا مفرّ منه، وبين الحداثة الغربيّة، دون النّظر للفروق الجوهريّة بين ثقافة الحداثة الغربيّة والثّقافة العربيّة.

لم ينف الحداثيّون حبّهم للتّراث العربيّ، لكنّهم لم ينكروا ارتماءهم في أحضان الجهد الغربيّ وانبهارهم بإنجازاته ومرجعيّاته الفكريّة ورأياه الجماليّة.

النّصوص الإبداعية التّراثية قالتها ذوات مبدعة، والشّعراء والنّقاد العرب الحداثيّين، لا ينفون عودتهم إلى التّراث والإفادة منه مستأنسين بآراء "إليوت" إذ يقول: "إنّ التّراث يتضمّن أساسا الحسّ التّاريخي الّذي ينطوي على إدراك نافذ ليس لماضويّة الماضي فحسب بل بتأثير الشّعور بأنّ أدب بلاده بأسره موجود بشكل متزامن، يؤلّف نظاما متزامنا، هذا الحسّ التّاريخي على حدّ قوله –هو حسّ بالسّرمدي، وهو حسّ بالزّمن معا، وهو في الوقت نفسه ما يجعل الكاتب يعي بوجود مكانه في الزّمن، أي كونه معاصرا".

4/رؤية النّاقد الحديث للنصّ التّراثي:

رأى الكثير من النّقاد الذّين حاولوا ولوج عوالم الشّعر الجاهلي مثلا: أنّ الاكتفاء بالمشاهدة وذكر عالم الأشياء والحيوان بدقائقه، وتتبّع لحظات الزّمن وسرد الأحداث ليس كافيا لوعي خصوصيّة الفكر العربيّ وطريقة التّعامل مع الحياة، ويرى "جابر عصفور" أنّ هناك "ظاهرة لافتة يلحظها من يطالع الشّعر الجاهليّ؛ فالشّاعر في هذا الشّعر لا ينظر إلى عالم الأشياء والحيوان والكائنات نظرا محايدا، كأنّ العالم منفصل عنه، مستقّل في الوجود، يتكوّن من معطيات بارزة أو موضوعيّة بريئة من المدركات، العالم في عينيّ الشّاعر الجاهليّ، وفي قصائده عالم فاعل منفعل، خارجيّ داخليّ، ذات وموضوع، وعي للشّاعر

وحضور لوجوده مرآة للأنا ومحطّ لتطلّعاتها ...علاقات متجاوبة لا تنفصل فيها الأشياء عن الكائنات...حضور متفاعل ينطق كلّ عنصر فيه لغة تشارك بقيّة العناصر والكائنات".

5/النّقد العربيّ والمناهج النّقدية:

اتّجه النّقاد لقراءة التّراث، واكتشفوا كثيرا من دُرره، وتقاطعاته مع التّراث الإنسانيّ، فحاولوا قراءته قراءة ثانيّة ليعاد له بريقه، ويظهر بعده الإنسانيّ العام الّذي نال من بعضه المناوئون؛ حين حاولوا إسقاط مناهج غربيّة على تلك النّصوص دون محاكمة لتلك المناهج النّقدية الغربيّة لأنّهم لا يعتبرونها شرّا مطلقا.

كانت بعض تطبيقات المناهج مضلّلة؛ صبغت العصر الجاهليّ ببعض روحانيّة الإسلام، كما سلبت بعض محاسن الفترات الإسلاميّة اللاّحقة وألصقت بها بعض وثنيّة الفرس والهند واليونان، وهو ما حاولته بعض تطبيقات المنهج الأسطوريّ مثلا، وكذا انتقاءات المناهج السّياقية كالتّاريخي والاجتماعي والنّفسي، الّتي نالت من الأشخاص والظّواهر الفنيّة.

فشأن شاعر واحد ك"أبي نوّاس" مثلا، نقرأ لناقد يقول عنه أنّه نرجسيّ، ودارس آخر يلتمس له العذر، بل الأعذار ويبرّر اتّجاهه للخمرة، ويجعل تعلّقه بزجاجة الخمرة تعلّقا بالأمّ الّتي افتقد حنانها، وآخر يقول: أنّ الرّجل لم يشرب في حياته خمرا، ولم يحتسه، وتوظيفه لها كان توظيفا صوفيّا... وآراء أخرى كثيرة إزّاء نفس الشّخص، فيتيه المعنى الّذي أراده "أبو نوّاس" في أشعاره، ويحتار المتلقّي، ويصعب عليه وضع اليد على الجماليّات الّتي قد تحويها قصائده.

لقد تعامل النّقاد مع "أبي نوّاس" تارة كبنية نصيّة متجلّاة في متون الشّعرية من منطق "موت المؤلّف" والتّعامل مع الأنساق اللّغوية والدّلالات بعيدا عن أيّ سياق، بينما آخرون أقحموه إقحاما مجحفا كما فعل "النّويهي" و "العقّاد" وغيرهما، وحمّلا النصّ مالا يطيقه، فكاد يتيه المعنى، وتشتّت المتلقّي واعتقد أنّ الخطأ في المناهج الّتي تحوّلت إلى أدوات للنّيل من النّصوص التّراثية وذواتها المبدعة.

أمّا عن المنهج التّاريخي؛ فقد اعتمد كثيرا في بداية العصر الحديث في النّقد العربي، وواجه به النّقاد النصّ التّراثي، فقد اشتمل على عدّة عيوب "لعلّ أخطرها هذا الرّبط الحتميّ بين الأدب والسّياسة وجعل الأدب ذيلا لا يكاد يصدر إلاّ كحالة عن هذه السّياسة من القوّة أو الضّعف أو الاتّساع أو الضّيق، فضلا عن فضل هذه العصور بعضها عن بعض، بينما الواقع يكذّب هذا في مجال الأدب خاصّة، وذلك حين تتداخل المعاني والموضوعات والمذاهب بين العصر وما يليه، وما يسبقه".

كما اتّخذ النّقد الاجتماعيّ بعدا فلسفيّا، وتعسّف أصحابه في تطبيقاته واعتبر النّقد الماركسيّ مثلا الأدب وكلّ نشاط إنسانيّ في المجتمع بما فيه الأدب والفنّ بنية فوقيّة، تحرّكها البنية التحتيّة الّتي هي العامل الاقتصاديّ وحركة الإنتاج الماديّ، وهو ما جعل الأدب ينتهي إلى كونه مؤسّسة اجتماعيّة، شأنها شأن المؤسّسات الأخرى.

كما عنت بعض الاتّجاهات النّقدية النصّانية باللّغة والنّسق والإحصاء والجداول والنّسب والأرقام والمنحنيات، وفكّكت النصّ تفكيكا مجحفا، جعله البعض كيمياء شعوريّة أو رياضة فنيّة، واتّجهت بالنصّ للاختبار العلميّ والمخبر والآلة، فأصبح ذلك شيئا غير مستساغ في عرف الأدب والنّقد لأنّه أذهب بريق الأدب وروحه الّتي كتب من أجلها، ونخصّص انتقادنا على منهجين سائدين على السّاحة النّقدية:

أ/*نقد المنهج السّيميائي:

لم تَسْلَم السّيميائيات من عيوبٍ ومآخذَ، شأنها في ذلك شأن سائر المناهج النقدية، وقد عرض "تودوروف" و"دوكرو" في معجميهما المشترَك أبرز المآخذ والانتقادات الموجهة إلى التّحليل السّيميائي،إذ ينظر المتحمسون للسّيميائيات باعتبارها "علمَ العلوم"، لكن دارسين آخرين ينظرون إليها نظرة مخالِفة، لقد عدّها "بارت" علما غيرَ كافٍ، وأكدّ "تودوروف" أنّها ما تزال في طور تأسيس أصولها المعرفية على أرضية ثابتة، وأنّه –رغم كل ما بذل من مجهود- لا يمكن الحديث عن بناء علمي متكامل؛ بل إنّ السّيميائيات "تظل مجموعة من الاقتراحات أكثر منها كيانا معرفيا قائما على أساس متين"، وفي السّياق نفسِه ، يرى "مارسيلو داسكال" (Marcelo Dascal) أنّ السّيميائيات ما تزال في مرحلتها الطّفولية ولم تتحول بعدُ إلى علم قائمٍ على تجانُس منهجي ومعرفي، حيث يقول: "إنّ السيميولوجيا ما تزال في مرحلة ما قبل الأنموذج من تطورها كعلم".

ومن المآخذ المسجّلة على السّيميائيات أيضا؛ أنّها غيرُ مستقلة بذاتها، بل متوقفة –في وجودها- على عدة علوم؛ وخاصة اللّسانيات الّتي حاصرتْها من كلّ جهة، وهيمنت على إوالياتها الإجرائية، واعتبر بعضُهم التّحليل السّيميائي خليطا من علوم اللّغة والنّحو والبلاغة، وسبق "لسوسير" أن أكدّ إنبِناء السّيميولوجيا على أساسيات علم النّفس الاجتماعي...إلخ

عِلاوة على هذا النقد الموجه إلى المنهج السّيميائي من النّاحية النظرية، هناك انتقادات أخرى توجّه إليه من الجانب التطبيقي؛ ومن ذلك أنّه مغْرق في التجريد والمنطق، خاصة مع مفهوم "المربّع السّيميائي " (Carré sémiotique).

كما أنّ جلّ الدّراسات السّيميائية تنهج نهجا شكلانيا مستبعدا المحدّدات الاجتماعية والثّقافية وغيرَها. وعليه، تقترب هذه الدّراسات جدا من المقاربة البنيوية، خاصّة وأنّها كثيرا ما تستخدم المصطلحات السوسيرية نفسَها.

إنّ المنهج السّيميائي طُبق –بكثرةٍ- في دراسة العلامات البسيطة، في حين إنّ العلامات المعقدة والمنطوية على قدْر كبير من الجمال لم تنل حظها الأوفى من المقاربة السّيميائية، ويقول الدكتور "عادل فاخوري": "بقيت الأبحاث السّيميائية متوقفة عند تفسير العلامات البسيطة، والحال أنّ العلامات الّتي تتوفّر فيها درجة عالية من الفنّ والجمال هي في كثير من الأحيان في الأقاويل الشعرية واللّوحات والأفلام والفيديوات، وعلى العموم في الأنساق المتعددة الوسائط، ذات تركيب يبدو أنّه يخضع لقواعد منضبطة، وحتى الآن، على حدّ علمنا، لم يَجْرِ تحليل هذه التراكيب وتقنينها". ثم إنّ المنهج السّيميائي يُسْقَط في كثير من التّجارب النقدية بشكل آلي على جميع النّصوص دون مراعاة خصوصية كلّ نص وطبيعته والجنس الأدبي الّذي ينتسب إليه.

ومهما قيل في نقد المنهج السّيميائي وتَعداد نواقصه، فإنّه ما يزال يحظى بمكانة مرموقة في المشهد النّقدي المعاصر الّذي يعجّ بزَخَمٍ من المناهج، ويمكن لمستخدِمه أن يحقق نتائجَ مهمّةً إن أحسن توظيفه. *

ب/نقد المنهج التفكيكي:

تعدُّ هذه النظرية بصورتها العامة مثلها مثلُ أي نصٍّ فلسفي لا تخلو من بعضِ التناقضات والمآزقِ، وبما أنَّ أنصارها يطرحون كلَّ النّصوص القديمة كانت والحديثة منها على أنَّها عرضةٌ للتناقض فقد لاحظَ بعضُ النقَّاد لهذه النظرية أنَّ التفكير المعتمد على الفلسفة فيها يفتقرُ إلى البعد التاريخيّ في تقويضهِ للنّصوص، وهناك عدَّة نقاط نقدية وجّهت إلى هذه النظرية الفلسفية والأدبية نذكر منها:

-يكتنفُ المنهج التّفكيكي غموضٌ واستعمالُ مفاهيم فلسفية غير واضحة لإقناع القارئ بأنَّ ما يقال مُذهل وغير عادي. -تركز على الكتابة وتنفي طرق التواصل الأخرى بين البشر. -تحكم على المؤلّف بالموت على اعتباره ناسخًا للنصّ فقط. -شكَّكت في العلم بدايةً ثمَّ انتقل الشكُّ هذا إلى كلّ شيء. -شكَّكَت بين الدّال والمدلول والمعنى النّاتج عنهما وهذا مخالفٌ للمنطق. والتّشكيك في اللّغة أدَّى للتّشكيك في قراءةِ أو تفسير النصّ، ممّا أدَّى لتعدّد القراءات، ولذلك ادَّعى من عارضَ هذا المنهجَ أنَّها طريقة نقدية خطيرة؛ لأنَّها تفكّك وتهدّمُ المفاهيمَ السّائدة باعتمادها على التّشكيك في كلّ اليقينيات.

***خاتمة:**

القراءة الواحدة للنصّ الواحد لم تعد كافيّة "للإحاطة بكلّ جوانب النصّ، ممّا يستوجب وجود قراءات متعدّدة لها نظرياتها المختلفة".

****مراجع ومصادر المحاضرة:***

-فاضل ثامر: اللّغة الثّانية في إشكاليّة المنهج والنظريّة والمصطلح.

-جابر عصفور:غواية التّراث.

-عبد العزيز حمّودة:المرايا المقعّرة.

-حمّود عبّاس عبد الواحد: قراءة النصّ وجماليات التّلقي بين المذاهب الغربيّة الحديثة وتراثنا النّقدي.

****التّطبيق رقم03:***

*يقول "محمّد عابد الجابري":

"ليس هناك قانون عام واحد يعبّر عن ميكانيزمات النّهضة في كلّ العصور والأوطان، ولكن مع ذلك يمكن للمرء أن يلاحظ بسهولة أنّ جميع النهضات الّتي نعرف تفاصيل عنها قد عبّرت أيديولوجيا عن بداية انطلاقها بالدّعوة إلى الانتظام في التّراث، وبالضّبط إلى العودة إلى الأصول."

****التّطبيق رقم04:***

* يقول "عبد الملك مرتاض" في كتابه: في نظرّية النّقد، ص30:

"إنّ الأدب هو الأدب، ولكن النّقد هو النّقد، وإنّ الأدب ينتمي إلى أشكال التّبليغ في مستواها الأرقى، على حين أنّ النّقد ينتمي إلى الأيديولوجيات، الثّقافات، والاتّجاهات الفكريّة، والنّظريات المعرفيّة على اختلافها.

فالكتابة أدب قوامه الخيال، والنّقد كتابة قوامها المعرفة."

****المطوب:***

معرفة أهمّ القضايا النّقدية الّتي تضمّنتها المقولتين النّقديتين (مع التّحليل والمناقشة).